بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة دينية

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أحمد عبد الغني



بعنوان :

كيف نتدبّر القرآن؟

من التلاوة باللسان إلى الهداية والعمل

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وتركنا على المحجة البيضاء، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتلاوة كتابه، فقال سبحانه:﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 27].وبيّن سبحانه كيفية التلاوة بقوله:﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4].ثم بيّن الغاية من إنزال القرآن، فقال تعالى:﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

فتأملوا هذه الآيات: تلاوة، وترتيل، وتدبر، وتذكر؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون أصواتًا عذبة تتردد على الألسنة فحسب، وإنما أنزله الله ليهدي العقول، ويوقظ القلوب، ويصلح النفوس، ويقيم حياة الناس على الحق.

وهنا يبرز سؤال مهم: لماذا يقرأ بعض الناس القرآن سنوات طويلة، وربما يختمونه مرات كثيرة، ومع ذلك لا يظهر أثره واضحًا في أخلاقهم ومعاملاتهم وقراراتهم؟

ولماذا نقرأ آيات الصدق، ثم نكذب؟ ونقرأ آيات الأمانة، ثم نخون؟ ونقرأ آيات العدل، ثم نظلم؟ ونقرأ آيات الرحمة، ثم نقسو على أهلينا والناس من حولنا؟

ليس معنى ذلك أن كل من لم تظهر عليه آثار التغيير لا ينتفع بالقرآن، فالهداية درجات، والقلوب تتفاوت، ولكن السؤال يدعونا إلى مراجعة طريقتنا في القراءة.

فالمشكلة ليست في القرآن الذي لا يتغير، وإنما قد تكون في الطريقة التي نقرأ بها القرآن، وفي مقدار ما نفهمه منه، ونستجيب له، ونعمل به.

ومن هنا تأتي محاضرتنا: كيف ننتقل من مجرد التلاوة إلى التدبر، ومن التدبر إلى العمل، حتى يصبح القرآن منهج حياة؟

أولًا: ما حقيقة تدبر القرآن؟

التدبر هو التأمل في معاني القرآن ومقاصده، والنظر في أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والاتعاظ بقصصه وأمثاله، ثم الاستجابة لما يدل عليه من هداية وعمل.

وليس التدبر مجرد شعور عابر عند سماع آية مؤثرة، ولا هو تفسير القرآن بالرأي من غير علم؛ بل هو فهم للمعنى في ضوء اللغة والسياق والتفسير المعتبر، ثم محاسبة النفس على مقتضى الآية.

قال الله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

فالآية تحث على التدبر، وتنبّه إلى أن بين الإنسان وبين الانتفاع بالقرآن حواجز ينبغي أن يجاهد نفسه لإزالتها.

وقد يقرأ الإنسان الآية فيفهم معناها، لكنه لا يعمل بها؛ وقد يتأثر بها لحظة، ثم يعود إلى عاداته القديمة.

ولذلك نحتاج إلى أن نجمع بين ثلاثة أمور :فهم المعنى، وحضور القلب، والاستجابة بالعمل.

ثانيًا: لماذا لا يؤثر القرآن في بعض القراء كما ينبغي؟

1- الغفلة وقسوة القلب

قد ينشغل القلب بالشهوات والهموم، ويعتاد صاحبه الذنوب، حتى تصبح القراءة عادة يؤديها اللسان بينما ينصرف القلب عنها.ولذلك يحتاج المسلم إلى التوبة، والاستغفار، ومجاهدة النفس، والابتعاد عما يقسي القلب ويشغله عن الله.ولا ينبغي أن يجعل الإنسان شعوره بالفتور سببًا لترك القرآن، بل يستمر في التلاوة ويطلب أسباب الانتفاع بها.

2- العجلة في القراءة

قد يكون همّ القارئ أن ينهي الجزء أو الختمة، فيسرع في القراءة من غير أن يتوقف عند المعاني.

والختمات الكثيرة ليست مذمومة في ذاتها، كما أن القراءة البطيئة ليست وحدها دليلًا على التدبر؛ وإنما المطلوب أن يجمع المسلم بين التلاوة الصحيحة وكثرة القراءة، وبين فهم المعاني والتأثر بها بحسب استطاعته.

قال تعالى:﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4].

والترتيل هو القراءة بتؤدة وبيان، مع إعطاء الحروف حقها. وهو يعين على التدبر، ولا سيما إذا صاحبه فهم للمعنى وحضور للقلب.

3- عدم فهم معاني الآيات

كيف يتدبر الإنسان ما لا يفهم معناه؟

قد يقرأ آية لا يعرف دلالة كلماتها، أو يمر بقصة لا يعرف مقصدها، أو يسمع أمرًا قرآنيًّا لا يدرك حدوده وحكمته.

ومن هنا تأتي أهمية تعلم اللغة العربية، والاستعانة بكتب التفسير الموثوقة، وسؤال أهل العلم فيما أشكل.

4- الفصل بين القراءة والعمل

قد يعرف الإنسان أن الغيبة محرمة، ثم يغتاب. ويعرف أن الظلم حرام، ثم يظلم. ويقرأ الأمر بالوفاء بالعهد، ثم لا يفي بوعده.

وهنا لا تكون المشكلة في غياب المعلومة وحدها، بل في ضعف الاستجابة لها.

فالقرآن يطلب منا أن نحاسب أنفسنا: ماذا غيّرت في حياتي بعد أن قرأت هذه الآيات؟ وأي خلق أصلحته؟ وأي معصية تركتها؟ وأي حق أعدته إلى صاحبه؟

ثالثًا: كيف نقرأ القرآن قراءة تغيّر حياتنا؟

1- استحضار أن الله يخاطبك بكتابه

حين تفتح المصحف، لا تجعل قراءتك مجرد عادة يومية، بل استحضر أنك تقرأ كلام الله، وأنك محتاج إلى هدايته ورحمته.

اقرأ بقلب من يبحث عن الطريق، وبنفس تريد الإصلاح، لا بمجرد الرغبة في إنهاء الصفحات.

واسأل نفسك: ما الذي يريد الله أن يعلمني إياه في هذه الآيات؟ وما الذي ينبغي أن أفعله بعد قراءتها؟

2- تحسين الصوت مع التدبر

من آداب التلاوة أن يقرأ المسلم القرآن قراءة حسنة، وأن يحسن صوته به من غير تكلف أو مبالغة تخرج القراءة عن مقصودها.

قال النبي ﷺ:ليس منا من لم يتغن بالقرآن» رواه البخاري.

وقد فسر العلماء التغني بالقرآن بتحسين الصوت به، وذكروا معاني أخرى في تفسير الحديث. والمقصود أن تكون القراءة حسنة واضحة، تعين على الخشوع والتأمل، لا أن يصبح تحسين الصوت غاية تنسينا معاني الآيات.

فجمال الصوت نعمة إذا أعان على حضور القلب، لكنه لا يغني عن فهم القرآن والعمل به.

3- فهم معاني الكلمات والآيات

اجعل لك وردًا يوميًّا من القرآن، واقرأ معه تفسيرًا ميسرًا، مثل *التفسير الميسر* أو *تفسير السعدي*، ولا تتردد في سؤال أهل العلم عما يشكل عليك.

وإذا مررت بآية تتضمن حكمًا شرعيًّا، فلا تستنبط منها حكمًا من عند نفسك، بل ارجع إلى تفسيرها وكلام العلماء.

فالغاية أن تقرأ قراءة تجمع بين سلامة الفهم وحضور القلب وصحة العمل.

4-تكرار الآيات التي تؤثر في قلبك

ليس من الضروري أن تنتقل من آية إلى أخرى دائمًا؛ فقد تقف عند آية تهز قلبك، فتكررها وتستحضر معناها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ قام ليلةً يردد آية واحدة، وهي قوله تعالى:

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].رواه النسائي وابن ماجه، وجاء معناه في روايات أخرى.

تأملوا كيف يكرر المؤمن الآية، فيستحضر ما فيها من معانٍ عظيمة، ويمنح قلبه فرصة للتأثر بها.

وقد كان السلف يطيلون الوقوف عند بعض الآيات في صلاتهم، يتأملون معانيها ويتفاعلون معها.

فإذا مررت بآية عن الرحمة، فتأمل سعة رحمة الله، واسأله من فضله. وإذا مررت بآية عن التوبة، فراجع نفسك واستغفر. وإذا مررت بآية عن الحساب، فتذكر موقفك بين يدي الله.

5-قراءة القرآن في الليل

من الوسائل المعينة على التدبر أن يخصص الإنسان وقتًا للقراءة في الليل؛ إذ تقل فيه المشاغل، ويصفو الذهن، ويجد القلب فرصة للتأمل.

قال الله تعالى:﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6].

أي إن العبادة والقراءة في الليل أشد موافقة للقلب واللسان، وأعون على حضور الذهن واستقامة القراءة.

وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، كما ثبت في الصحيحين.

فاجعل لك نصيبًا من قراءة الليل، ولو كان قليلًا، مع التدبر والعمل. وليس المقصود أن تترك ورد النهار، بل أن تضيف إلى قراءتك وقتًا هادئًا يعينك على فهم القرآن.

6- ربط الآيات بواقع الحياة

وهذه من أهم خطوات التدبر؛ أن تسأل نفسك عند كل آية: كيف تتصل هذه الهداية بحياتي؟

إذا قرأت قول الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، فاسأل نفسك: هل أتحرى الصدق في كلامي؟ وهل أصدق في تجارتي ووعودي؟

وإذا قرأت قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، فاسأل نفسك: هل أعدل بين أولادي؟ وهل أعطي العامل حقه؟ وهل أنصف من اختلفت معه؟

وإذا قرأت قوله تعالى:﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، فاسأل نفسك: كيف أعامل والديّ؟ وهل أحسن إليهما بالقول والعمل؟

وهكذا يتحول القرآن من معانٍ نعرفها إلى هداية نعيشها.

7-التفاعل مع الآيات بالدعاء والاستعاذة والاستغفار

من هدي النبي ﷺ أنه كان يتفاعل مع تلاوة القرآن، ولا يجعلها مجرد ألفاظ متتابعة.

فعن حذيفة رضي الله عنه في وصف صلاة النبي ﷺ أنه إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، رواه مسلم.

وهذا يعلمنا أن القراءة عبادة حية يتفاعل فيها القلب واللسان.

فإذا مررت بآية رحمة، فاسأل الله رحمته. وإذا مررت بآية عذاب، فاستعذ بالله منه. وإذا قرأت آية استغفار، فاستغفر. وإذا مررت بآية دعاء، فادعُ الله بما يناسب المقام.

8-سماع القرآن من قارئ آخر

لا تقتصر على القراءة بنفسك؛ فاستمع أحيانًا إلى قارئ متقن، واقرأ معه أو أنصت بقلب حاضر.

وقد طلب النبي ﷺ من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، قال له النبي ﷺ: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان. والحديث متفق عليه.

فإذا كان النبي ﷺ يتأثر بالقرآن، فإننا أحوج إلى أن نصغي إليه بقلوبنا، ونتأمل ما يحمله من معانٍ عن الآخرة والحساب والرحمة والمسؤولية.

9- التعرف إلى أساليب القرآن وبلاغته

كلما ازداد فهم الإنسان للغة القرآن وأساليبه، اتسعت آفاق تدبره.

تأمل مثلًا تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، وما يفيده من الاختصاص؛ أي نخصك بالعبادة.

وتأمل تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن:﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

إنه تذكير متكرر بنعم الله وآلائه، ودعوة للإنسان والجن إلى الاعتراف بفضله وعدم جحود نعمه.

ومن أبواب التدبر أن يتأمل القارئ مناسبة الآيات، وأسباب نزولها حيث ثبتت، والسياق الذي وردت فيه، وأوجه البلاغة التي يكشفها أهل العلم.

لكن ينبغي ألا يتكلف الإنسان في استخراج أسرار لا دليل عليها، أو يحمل الآيات معاني لا تحتملها اللغة والسياق.

10-فهم سياق الآيات

لا ينبغي أن تُفهم الآية بمعزل عما قبلها وما بعدها؛ فالسياق من أهم مفاتيح الفهم الصحيح.

ويمكن للقارئ أن يسأل: ما موضوع المقطع؟ ولماذا وردت هذه الآية هنا؟ وما علاقتها بما قبلها وبعدها؟

وهذا ما يُعبّر عنه بالنظر في السياق، أو في السباق واللحاق؛ أي التأمل فيما سبق الآية وما تلاها، لفهم معناها في موضعها.

وبذلك يحمي المسلم نفسه من الفهم المبتور، ويزداد إدراكًا لترابط المعاني القرآنية.

11-مجالسة أهل العلم ومناقشة المعاني

قد تمر بك آية لا تفهم معناها، أو تجد تعارضًا متوهمًا بين ما فهمته وبين نص آخر، أو تحتار في كيفية تطبيق حكم شرعي.

هنا تأتي أهمية سؤال العلماء الموثوقين، ومجالسة أهل العلم، وقراءة التفاسير المعتمدة.

فالتدبر لا يعني أن يستغني كل إنسان بفهمه الشخصي، بل أن يجمع بين التأمل المشروع والرجوع إلى العلم الموثوق.

رابعًا: كيف نترجم التدبر إلى عمل؟

قد يفهم الإنسان الآية، ويتأثر بها، ثم ينسى أثرها بعد أن يغلق المصحف. ولذلك نحتاج إلى خطوة عملية تحفظ أثر القراءة.

بعد كل جلسة تلاوة، اختر معنى واحدًا تريد العمل به.

- إذا قرأت آيات عن الصدق، فاجعل لك عهدًا بترك الكذب.
- إذا قرأت آيات عن بر الوالدين، فبادر إلى الاتصال بهما أو الإحسان إليهما.
- إذا قرأت آيات عن أداء الحقوق، فراجع دينًا أو حقًّا تأخرت في أدائه.
- إذا قرأت آيات عن الغيبة، فاحفظ لسانك في مجلسك التالي.
- إذا قرأت آيات عن الصبر، فدرّب نفسك على ضبط الغضب.
- إذا قرأت آيات عن التوبة، فابدأ بترك ذنب تستطيع الإقلاع عنه.

ولا يلزم أن تغيّر حياتك كلها في يوم واحد؛ ابدأ بخطوة صادقة، ثم استمر عليها، وزد عليها ما تستطيع.

واجعل لك سؤالًا ثابتًا بعد القراءة: ما الأمر الذي سأعمل به، وما الخطأ الذي سأجاهد نفسي على تركه؟

فبهذا يصبح القرآن حاضرًا في البيت والعمل والتجارة والعلاقات والقرارات، لا في وقت التلاوة وحده

.

الخاتمة: لا تجعل علاقتك بالقرآن تنتهي بإغلاق المصحف

أيها الأحبة، القرآن نعمة عظيمة، وهدى ورحمة، لكنه يحتاج منا إلى قلب يقبل الهداية، وعقل يتدبر، ونفس تجاهد، وجوارح تستجيب.

فلا تكتفِ بأن يكون لك صوت حسن في التلاوة، بل اجعل لك نصيبًا من فهم المعاني. ولا تكتفِ بفهم الآيات، بل اسأل نفسك كيف تعمل بها. ولا تيأس إذا لم يتغير كل شيء في حياتك سريعًا، بل استمر في القراءة والتعلم والمجاهدة.

تذكروا أن القرآن الذي نقرأه هو نفسه الذي هدى الله به قلوبًا، وأصلح به نفوسًا، وغيّر به أحوالًا؛ فالمطلوب أن نحسن استقبال هدايته، وأن نفتح له قلوبنا، وأن نترجم معانيه إلى واقع نعيشه.

اقرأ القرآن بلسانك، وافهمه بعقلك، وتدبره بقلبك، واعمل به في حياتك.

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وأن يرزقنا تلاوته وتدبره والعمل به، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

الدكتور محمد عبد الغني